الآفة السابعة
التكبر

والآفة السابعة التى تصيب بعض العاملين، وهى ذات أثر خطير فى حياتهم ، وعليهم أن يجاهدوا أنفسهم للتطهر منها ، بل وأن تصير لديهم حصانة ضدها ، إنّما هى : آفة التكبر .

وحتى يكون حديثنا عن هذه الآفة واضحا ، محدّد الأبعاد والمعالم ، فإنّنا سنتناولها على النحو التالى:

أولا : معنى التكبر :

لغة : التكبّر فى اللغة هو: التعظم، أى إظهار العظمة، قال صاحب اللسان: «والتكبّر، والاستكبار : التعظم ، ومنه قوله تعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ [الأعراف : ١٤٦] . أى : أنهم يرون أنهم أفضل الخلق ، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم» (١) .

اصطلاحا : أما فى اصطلاح الدعاة أو العاملين ، فإن التكبّر هو : إظهار العامل إعجابه بنفسه بصورة تجعله يحتقر الآخرين فى أنفسهم ، وينال من ذواتهم ، ويترفع عن قبول الحق منهم .

جاء فى الحديث ، أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنّة من كان فى قلبه مثقال ذرّة من كبر» قال رجل : إن الرّجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : «إن الله جميل يحبّ الجمال ، والكبر بطر الحقّ ، وغمط الناس» (٢) .

ثانيا : الفرق بين التكبّر ، وبين العزّة :

والفرق بين التكبّر والعزّة واضح ، إذ التكبّر ترفع بالباطل ، والعزّة ترفع بالحق،

---

(١)انظر : لسان العرب ٥ / ١٢٩ مادة : « كبر » .

(٢)الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب تحريم الكبر وبيانه ١ / ٩٣ رقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا به. ومعنى : « بطر الحق » : إنكار الحق ودفعه ترفعا وتجبّرا ، أما « غمط الناس » فإن معناه : احتقارهم. انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/ ٨٣، ٣/ ١٧١ .

أو أنّ التكبّر : نكران النعمة وجحودها ، والترفع : اعتراف بالنعمة وتحدّث بها ، على نحو ما تضمّنه الحديث المذكور آنفا .

ثالثا : أسباب التكبّر :

ولما كان التكبّر شدّة الإعجاب بالنفس، المؤدية إلى احتقار الناس، والترفع عليهم، فإنّ أسبابه التى تؤدى إليه ، وبواعثه التى ينشأ منها ، هى بعينها : أسباب وبواعث الإعجاب بالنفس ، والغرور ، إذا أهملت ولم تعالج ، وهى لاتزال فى مهدها ، أو فى أوائلها ، ويزاد عليها :

١ ـ مبالغة الآخرين فى التواضع :

فقد يكون السبب أو الباعث على التكبّر : إنّما هى مبالغة الآخرين فى التواضع ، وهضم النفس ، ذلك بعض الناس قد تحملهم المبالغة فى التواضع على ترك التجمل والزينة فى اللباس ونحوه ، وعلى عدم المشاركة بفكر أو برأى فى أىٍّ أمر من الأمور ، بل والعزوف عن التقدم للقيام بمسئولية ، أو تحمّل أمانة ، وقد يرى ذلك من لم يدرك الأمور على حقيقتها ، فيوسوس له الشيطان ، وتزين له نفسه ، أن عزوف الآخرين عن كل ما تقدم إنما هو للفقر أو لذات اليد ، وإلا لما تأخروا أو توانوا لحظة ، وتظلّ مثل هذه الوساوس ، وتلك التزيينات تلحّ عليه وتحيط به من هنا وهناك ، حتى ينظر إلى الآخرين نظرة ازدراء وسخرية ، فى الوقت الذى ينظر فيه إلى نفسه نظرة إكبار وإعظام، وقد لا يكتفى بذلك ، بل يحاول إبرازه فى كل فرصة تتاح له ، أو فى كلّ مناسبة تواتيه ، وهذا هو التكبّر .

وقد لفت القرآن الكريم والسنّة النبوية النظر إلى هذا السبب، أو إلى هذا الباعث من خلال دعوتهما إلى التحدّث بنعمة الله تعالى ، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى] .

وإذ يقول النبى ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال » [١] . « واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها، وأتمها علينا » [٢] .

وعن مالك بن نضلة الجشمى قال : أتيت النبى ﷺ فى ثوب دون ، فقال : «ألك

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٣ .

(٢) الحديث أورده الحافظ ابن كثير فى : تفسير سورة « الضحى » ٤ / ٥٢٣ دون أن يعزوه إلى أى من كتب الحديث .

مال ؟ » قال: نعم، قال: « من أى المال ؟ »، قال: قد آتانى الله من الإبل، والغنم، والخيل، والرقيق، قال: « فإذا أتاك الله مالا، فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته »[١].

وقد فهم السلف ذلك ، فحرصوا على التحدث بما يفيض الله عليهم من نعم، وعابوا على من يغفل هذا الأمر من حسابه .

قال الحسن بن على ﷺ : إذا أصبت خيرا ، أو عملت خيرا فحدّث به الثقة من إخوانك [٢] .

وقال بكر بن عبد الله المزنى : من أعطى خيرا فلم يُرَ عليه ، سمّى بغيض الله، معاديا لنعم الله [٣] .

٢ ـ اختلال القيم أو معايير التفاضل عند الناس :

وقد يكون السبب أو الباعث على التكبّر إنما هو اختلال القيم أو معايير التفاضل عند الناس ، ذلك أن الجهل قد يسود فى الناس إلى حد اختلال القيم أو معايير التفاضل عندهم ، فتراهم يفضّلون صاحب الدنيا ، ويقدمونه حتى لو كان عاصيا أو بعيدا عن منهج الله ، فى الوقت الذى يحتقرون فيه البائس المسكين الذى أدارت الدنيا ظهرها له ، حتى وإن كان طائعا ملتزما بهدى الله، ومن يحيا فى هذا الجو ، ويتأثر به لا محالة ـ إلا من رحم الله ـ ويتجلى هذا التأثر فى احتقار الآخرين والترفع عليهم .

وقد ألمح القرآن والسنّة إلى هذا السبب أو إلى هذا الباعث من خلال رفض هذا المعيار ، ووضع المعيار الصحيح مكانه ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون]. ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ] .

وإذ يقول النبى ﷺ لأصحابه، وقد مرّ عليه رجل: «ما تقولون فى هذا الرجل ؟ » قالوا: رأيك فى هذا، نقول: هذا من أشرف الناس، هذا حرىٌ إن خطب أن يُخَطَّبَ،

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب اللباس : باب فى غسل الثوب وفى الخلقان ٤/ ٥١ رقم (٤٠٦٣) من حديث أبى الأحوص ، عن أبيه ، مرفوعا به .

(٢، ٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٢٠ / ١٠٢ .

وإن شفع أن يشفَّع، وإن قال أن يُسمع لقوله، فسكت النبى ﷺ. ومرّ رجل آخر، فقال النبى ﷺ: « ما تقولون فى هذا ؟» قالوا : نقول والله يا رسول الله ، هذا من فقراء المسلمين ، هذا حرىٌ إن خطب لم ينكحْ ، وإن شفع لا يشفَّع ، وإن قال لا يُسمع لقوله ، فقال النبى ﷺ: « لهذا خير من ملء الأرض مثل هذا » [١] .

٣ ـ مقارنة نعمته بنعمة الآخرين ونسيان المنعم :

وقد يكون السبب فى التكبر إنّما هو مقارنة نعمته بنعمة الآخرين ونسيان المنعم، ذلك أن مِنَ الناس مَنْ يحبوه الله ـ لحكمة يعلمها ـ بنعم يحرم منها الآخرين، كالصحة، أو الزوجة أو الولد، أو المال، أو الجاه والمركز، أو العلم، أو حسن الحديث، أو الكتابة أو التأليف ، أو القدرة على التأثير ، أو كثرة الأنصار والاتباع . . . إلخ، وتحت بريق وتأثير هذه النعم ، ينسى المنعم، ويأخذ فى الموازنة أو المقارنة بين نعمته ونعمة الآخرين ، فيراهم دونه فيها، وحينئذ يحتقرهم، ويزدريهم، ويضع من شأنهم، وهذا هو التكبّر .

وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى هذا السبب ، أو إلى هذا الباعث ، من خلال حديثه عن قصّة صاحب الجنّتين ، فقال : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) ﴾

[الكهف]

٤ ـ ظنّ دوام النعمة أو عدم التحوّل عنها :

وقد يكون السبب فى التكبّر إنّما هو ظنّ دوام النعمة أو عدم التحوّل عنها، ذلك أن بعض الناس قد تأتيه النّعمة من الدنيا ، وتحت تأثيرها وبريقها يظنّ دوامها أو عدم التحول عنها ، وينتهى به هذا الظن إلى التكبر أو الترفع أو التعالى على عباد الله ، كما قال صاحب الجنتين لصاحبه : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف] .

وكما قال الله عن الإنسان : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت : ٥٠] .

---

[١] الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الزّهد : باب فضل الفقراء ٢ / ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ رقم (٤١٢٠) من حديث سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه مرفوعا به .

٥ ـ السّبق بفضيلة أو أكثر من الفضائل :

وقد يكون السبب فى التكبّر إنّما هو السبّق بفضيلة أو أكثر من الفضائل، كالعلم ، أو الدعوة ، أو الجهاد ، أو التربية أو نحو ذلك ، ذلك أن بعض الناس قد يحبوهم القدر بفضيلة السبق فى بعض خصال الخير وإذا بهم ينظرون إلى اللاحق نظرة ازدراء واحتقار، ولسان حالهم أو مقالهم ينطق فى استكبار : ومن هؤلاء الذين يعملون الآن ؟ لقد كانوا عدما أو فى حكم العدم يوم أن مشينا على الأشواك، وتحملنا مشاق ومتاعب الطريق، حتى عبّدناها لهم ولغيرهم من الناس .

وقد لفت المولى ـ سبحانه ـ إلى هذا السبب أو إلى هذا الباعث حين بين : أن السَّبق لا يعتبر، ولا قيمة له، إلا إذا كان معه الصّدق، فقال : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة] . ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف] .

ولم ينظر المولى سبحانه إلى سبق هؤلاء إلا من خلال ما قدموه من الأدلة على صدقهم وثباتهم على الحق ، مثل : الهجرة ، والنصرة ، واتباع سبيل المؤمنين ، وحسن الصلة بالله ، ومعرفة الفضل لذويه . . . وهلمّ جرّا.

وهكذا صار مبدأ الإسلام : « ليس الفضل لمن سبق ، بل لمن صدق » .

وصدق الله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾ ﴾ [الاحزاب] .

٦ ـ الغفلة عن الآثار المترتبة على التكبّر :

وقد يكون السبب فى التكبّر ، إنما هى الغفلة عن الآثار الخطيرة ، والعواقب المهلكة المترتبة على التكبّر فى الأرض بغير الحق ، ذلك أن من غفل عن الآثار الضارة لعلّة من العلل ، أو آفة من الآفات ، فإنه يصاب بها ، وتتمكن من نفسه ، ولا يشعر بذلك إلا بعد فوات الأوان ، وبعد الاستعصاء على القلع والعلاج .

رابعا : مظاهر التكبّر :

هذا وهناك مظاهر للتكبّر ، يعرف أو يستدلّ عليه بها ، نذكر منها :

١ ـ الاختيال فى المشية، مع لىّ صفحة العنق، وتصعير الخدّ ، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج : ٩] ، ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(٢٣)﴾ [الحديد]، ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)﴾ [لقمان].

٢ ـ الإفساد فى الأرض عندما تتاح الفرصة مع رفض النصيحة، والاستنكاف عن الحق، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة] .

٣ ـ التقعر فى الحديث ، يقول النبى الكريم ﷺ : « إنّ الله ـ عز وجل ـ يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه ، كما تخلل الباقرة بلسانها » [(١)] ، « ألا أنبئكم بشراركم ؟ » فقال : « هم الثرثارون المتشدقون . . . » [(٢)] .

٤ ـ إسبال الإزار بنية الاختيال والتكبّر ، يقول النبى ﷺ : « من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » قال أبو بكر : إن أحد جانبى إزارى يسترخى ، إنى لأتعاهد ذلك منه، قال : « لست ممّن يفعله خيلاء » [(٣)] .

٥ ـ محبة أن يسعى الناس إليه ، ولا يسعى هو إليهم ، وأن يمثّلوا له قياما إذا قدم أو مرّ بهم، وقد جاء فى الحديث : « من أحبّ أن يُمَثَّل له الرجال قياما، فليتبوأ مقعده من النار » [(٤)] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب ما جاء فى المتشدق فى الكلام ٤/ ٣٠١، ٣٠٢ رقم (٥٠٠٥) عن محمد بن سنان الباهلى العوقى، والترمذى فى: السنن: كتاب الأدب: باب ما جاء فى الفصاحة والبيان ٥/ ١٢٩، ١٣٠، رقم (٢٨٥٣) عن محمد بن عبد الأعلى، عن عمر بن على المقدمى وعقب عليه بقوله: « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه »، وأحمد فى: المسند (الفتح الربانى ١٩ / ٢٧١) عن يزيد، كلهم عن نافع بن عمر، عن بشر بن عاصم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبى ﷺ مرفوعا به. والذى يتخلل بلسانه: هو الذى يتشدق فى الكلام، ويفخم به لسانه، ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها. انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ٧٣ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى: المسند (الفتح الربانى ١٩ / ٢٧١) من حديث أبى هريرة مرفوعا به، وعقب عليه صاحب الفتح الربانى بقوله : « لم أقف عليه بهذا اللفظ لغير الإمام أحمد من حديث أبى هريرة، وسنده جيد ، وله شاهد من حديث أبى ثعلبة الخشنى فى : المسند أيضا ١٩ / ٧٦ » .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب اللباس : باب ما جاء فى إسبال الإزار ٤ / ٥٦، ٥٧ رقم (٤٠٨٥) عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ، مرفوعا به .

(٤) سبق تخريجه ص ٨١ .

٦ ـ محبّة التقدم على الغير فى المشى أو فى المجلس، أو فى الحديث ، أو نحو ذلك .

خامسا : آثار التكبّر :

وللتكبّر فى الأرض بغير الحقّ آثار ضارّة ، وعواقب مهلكة ، سواء على العاملين أو على العمل الإسلامى :

أ ـ على العاملين :

١ ـ الحرمان من النّظر والاعتبار :

أى أن الأثر الأول الذى يتركه التكبّر على العاملين : إنّما هو الحرمان من النظر والاعتبار ، ذلك أن المتكبر ـ بترفّعه وتعاليه على عباد الله ـ قد اعتدى من حيث يدرى أو لا يدرى على مقام الألوهية ، ومثل هذا لابدّ له من عقوبات، وأوّل هذه العقوبات: الحرمان من النظر والاعتبار، فتراه يمر على آيات الله المبثوثة فى النفس وفى الكون، وهو فى إعراض تام عنها : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ (يوسف) .ومن حرم النظر والاعتبار ، كانت عاقبته البوار والخسران المبين؛ لأنه سيبقى مقيما على عيوبه وأخطائه ، غارقا فى أو حاله ، حتى تنتهى الحياة، كما عقب النبى ﷺ حين قرأ الآيات الأخيرة من سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ إلى قوله : ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ عقب بقوله : « ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها » [(١)] .

---

(١) الحديث جزء من حديث طويل أورده ابن كثير فى : تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٤٠ ، ٤٤١ من طريقين عن عطاء ، الأولى بلفظ : انطلقت أنا وابن عمر ، وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فدخلنا عليها، وبيننا وبينها حجاب، فقالت : يا عبيد ، ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر : زر غبّا تزدد حبا. فقال ابن عمر: ذرنا ، أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا، أتانى فى ليلتى حتى مسّ جلده جلدى ، ثم قال : « ذرينى أتعبّد لربّى ـ عزّ وجل» . قالت :فقلت : والله إنى لأحب قربك ، وإنى أحبّ أن تعبد ربّك ، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى ، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، قالت : فقال : يا رسول الله ، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعنى أن أبكى ، وقد أنزل الله على فى هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ » ثم قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها »، والطريق الأخرى بنحوه ، ثم عزاهما ـ أى ابن كثير ـ إلى ابن مردويه، وعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم، وابن حبان .

وقد صرح المولى ـ سبحانه وتعالى ـ بهذا الأثر فى قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

٢ـ القلق والاضطراب النفسى :

وأما الأثر الثانى الذى يتركه التكبّر على العاملين ؛ فإنّما هو القلق والاضطراب النفسى ، ذلك أن المتكبر يحبّ ـ إشباعا لرغبة الترفع والتعالى ـ أن يحنى الناس رءوسهم له، وأن يكونوا دوما فى ركابه ، ولأنّ أعزّة الناس وكرامهم يأبون ذلك ، بل ليسوا مستعدين له أصلا ، فإنّه يصاب بخيبة أمل ، تكون عاقبتها القلق والاضطراب النفسى ، هذا فضلا عن أن اشتغال هذا المتكبّر بنفسه يجعله فى إعراض تام عن معرفة الله وذكره ، وذلك له عواقب أدناها فى هذه الدنيا : القلق والاضطراب النفسى .

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤] . ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن] .

٣ ـ الملازمة للعيوب والنقائص :

وأمّا الأثر الثالث الذى يتركه التكبّر على العاملين ، فإنّما هى ملازمة العيوب والنقائص، ذلك أن المتكبر لظنه أنه بلغ الكمال فى كل شىء لايفتّش فى نفسه، حتى يعرف أبعادها ومعالمها، فيصلح ما هو فى حاجة منها إلى إصلاح، ولا يقبل كذلك نصحا أو توجيها أو إرشادا من الآخرين ، ومثل هذا يبقى غارقا فى عيوبه ونقائصه ، ملازما لها إلى أن تنقضى الحياة ، ويدخل النار مع الداخلين : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف]. ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة].

٤ ـ الحرمان من الجنّة :

وأمّا الأثر الأخير الذى يتركه التكبّر على العاملين ؛ فإنّما هو الحرمان من الجنة، وذلك أمر بدهى، فإن من يعتدى على مقام الألوهية، ويظل مقيما على عيوبه ورذائله، ستنتهى به الحياة حتما ، وما حصّل خيرا يستحق به ثوابا أو مكافأة، فيحرم الجنّة مؤبدا أو مؤقتا، وصدق الله ورسوله، إذ يقول الحق فى الحديث القدسى: « الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى ، من نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم »[1] .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب البراءة من الكبر والتواضع ٢ / ١٣٩٧ رقم (٤١٧٤) من حديث أبى هريرة مرفوعا به .

وإذ يقول النبي ﷺ : «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر . . .» [١] .

« . . . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتلّ جوّاظ مستكبر » [٢] .

ب ـ على العمل الإسلامى :

ومن آثاره على العمل الإسلامى :

١ ـ قلّة كسب الأنصار بل والفرقة والتمزّق :

ذلك أن القلوب جبلت على حبّ من ألانَ لها الجانب، وخفض لها الجناح، ونظر إليها من دون لا من عل ، أمّا من ترفّع عليها واحتقرها أو ازدراها ونال منها ؛ فإنّها تبغضه، وتنفر منه، بل وتحاول الابتعاد عنه، وتكون العاقبة خواء ذات اليد من الأنصار من ناحية، ووقوع الفرقة والتمزّق بين من هو نصير وظهير بالفعل من ناحية أخرى .

ويوم ينتهى الأمر بالعمل الإسلامى إلى انعدام النصير من الخارج ، ووقوع الفرقة والتمزّق من الداخل ، فإنّه يسهل ضربه ، أو على الأقل إجهاضه، فلا يؤتى ثمره إلا بعد تكاليف كثيرة وزمن طويل .

وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى هذا الأثر ، وهو يتحدث عن المنافقين فقال:

﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ ﴾ [المنافقون] .

وكذلك النبى ﷺ إذ يقول : « . . . وإن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » [٣] .

٢ ـ الحرمان من العون والتأييد الإلهى :

ذلك أن الحق سبحانه مضت سنّته أنه لا يعطى عونه وتأييده ، إلا لمن هضموا نفوسهم حتى استخرجوا حظ الشيطان من نفوسهم ، بل حظ نفوسهم من نفوسهم، والمتكبرون قوم كبرت نفوسهم ، ومن كانت هذه صفته ، فلا حقّ له فى عون أو تأييد إلهى .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب تحريم الكبر وبيانه ١ / ٩٣ رقم (٩١) من حديث ابن مسعود مرفوعا به .

(٢) الحديث شطر من حديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب الكبر ٨ / ٢٤ من حديث حارثة بن وهب الخزاعى مرفوعا ، والجوّاظ هو : الجموع المنوع .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤/٢١٩٨، ٢١٩٩ رقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار مرفوعا به .

ولعل ذلك هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. حيث ربط نصره لهم بحالهم التى كانوا عليها من المسكنة والتواضع وهضم النفس ، وكأن هذه الحال إذا انعدمت أو غابت غاب معها العون والتأييد .

سادسا : علاج التكبّر :

هذا وعلاج التكبّر ـ بحيث تطهر منه النفس ، ولا يعود إليها مرة أخرى ـ إنما يكون باتباع الأساليب ، والوسائل التالية :

١ ـ تذكير النفس بالعواقب والآثار المترتبة على التكبّر ، سواء أكانت عواقب ذاتية أو متّصلة بالعمل الإسلامى ، وسواء أكانت دنيوية أو أخروية على النحو الذى قدمنا ، فلعلّ هذا التذكير يحرّك النفس من داخلها ، ويحملها على أن تتوب، وتتدارك أمرها قبل ضياع العمر وفوات الأوان .

٢ ـ عيادة المرضى ، ومشاهدة المحتضرين ، وأهل البلاء ، وتشييع الجنائز، زيارة القبور ، فلعل ذلك أيضا يحركه من داخله ، ويجعله يرجع إلى ربه بالإخبات، والتواضع .

٣ ـ الانسلاخ من صحبة المتكبّرين ، والارتماء فى أحضان المتواضعين المخبتين، فربما تعكس هذه الصحبة بمرور الأيام شعاعها عليه ، فيعود له سناؤه ، وضياؤه الفطرى كما عند ولادته .

٤ ـ مجالسة ضعاف الناس وفقرائهم ، وذوى العاهات منهم ، بل ومؤاكلتهم ومشاربتهم ، كما كان يصنع النبى ﷺ وصحبه الكرام ، وكثير من السلف ، فإن هذا مما يهذب النفس ، ويجعلها تقلع عن غيّها ، وتعود إلى رشدها .

٥ ـ التفكّر فى النّفس ، وفى الكون ، بل وفى كلّ النعم التى تحيط به من أعلاه إلى أدناه ، مَنْ مصدر ذلك كله ؟ ومَنْ ممسكه ؟وبأى شيء استحقَّه العباد ؟ وكيف تكون حاله لو سلبت منه نعمة واحدة ، فضلا عن باقى النعم ؟ فإن ذلك التفكّر لو كانت معه جدية ، يحرك النفس ويجعلها تشعر بخطر ما هى فيه ، إن لم تبادر بالتوبة والرجوع إلى ربها .

٦ ـ النظر فى سير وأخبار المتكبرين ، كيف كانوا ؟ وإلى أى شيء صاروا ؟ من إبليس والنمرود إلى فرعون ، إلى هامان ، إلى قارون ، إلى أبى جهل ، إلى أبى ابن خلف ، إلى سائر الطغاة والجبارين والمجرمين ، فى كل العصور والبيئات ، فإن ذلك

مما يخوف النفس ، ويحملها على التوبة والإقلاع ، خشية أن تصير إلى نفس المصير ، وكتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ وسنة النبى ﷺ وكتب التراجم والتاريخ خير ما يعين على ذلك .

٧ ـ حضور مجالس العلم التى يقوم عليها علماء ثقات نابهون ، لاسيّما مجالس التذكير والتزكية ، فإن هذه المجالس لا تزال بالقلوب حتى ترقّ وتلين، وتعود إليها الحياة من جديد .

٨ ـ حمل النفس على ممارسة بعض الأعمال التى يتأفف منها كثير من النّاس ممارسة ذاتية ما دامت مشروعة ، كأن يقوم هذا المتكبر بشراء طعامه وشرابه وسائر ما يلزمه بنفسه ، ويحرص على حمله والمشى به بين الناس ، حتى لو كان له خادم ، على نحو ما كان يصنع النبى ﷺ وصحبه ، والسلف ، فإن هذا يساعد كثيراً فى تهذيب النفس وتأديبها ، والرجوع بها إلى سيرتها الأولى الفطرية ، بعيداً عن أى التواء أو اعوجاج .

٩ ـ الاعتذار لمن تعالى وتطاول عليهم بسخرية أو استهزاء ، بل ووضع الخدّ على التراب وإلصاقه به ، وتمكينه من القصاص ، على نحو ما صنع أبو ذرّ مع بلال لما عاب عليه النبى ﷺ تعييره بسواد أمه .

١٠ ـ إظهار الآخرين نعمة الله عليهم ، وتحدثهم بها ـ لاسيّما أمام المستكبرين ـ علّهم يثوبون إلى رشدهم وصوابهم ، ويتوبون ويرجعون إلى ربهم ، قبل أن يأتيهم أمر الله .

١١ ـ التذكير دوما بمعايير التفاضل والتقدم فى الإسلام : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ، « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكوننّ أهون على الله ـ تعالى ـ من الجعلان» [١] .

١٢ ـ المواظبة على الطاعات : فإنها إذا وظب عليها، وكانت متقنة لا يراد بها إلا وجه الله ، طهّرت النفس من كل الرذائل ، بل زكتها وسمت بهـا إلى أعلى عليين : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] .

---

[١] الحديث أورده ابن كثير فى: تفسير القرآن العظيم ٤/٢١٧ من حديث حذيفة به، وعزاه إلى أبى بكر البزار فى مسنده ، وأنه ـ أى البزار ـ عقب عليه بقوله: « لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه ».

١٣ ـ محاسبة النفس أولا بأول ، بحيث يعرف صاحب هذا الداء الحدّ الذى انتهى إليه علاجه ، وما فيه من نجاح أو قصور ، فينمى نواحى النجاح ، ويتدارك نواحى القصور .

١٤ ـ وأخيراً . . الاستعانة بالله ـ عزّ وجلّ ـ فإنّه ـ سبحانه ـ يعين من استعان به ، ويجيب دعاء المضطر إذا دعاه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل] .